# من دموع القلب !

« مهداة إلى الأستاذ أنور العطار »

## للأستاذ على الطنطاوى

« هل تذكر يا أنور ، يوم جزنا بمقبرة الصحاح ونحن طفلان يتيمان فى طريقنا إلى المترلين الصغيرين المتجاورين فى ( السهانة ) نوقفنا ساعة على القبرين المتدانيين نزور أبوينا ... ثم ذهبنا مسرعين لنودع آلامنا صدر الأم ؟

أتذكر ما قلت لى يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها ، وما قلت لك ؟ أتذكر أننا اتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل ؟

لقد كان ما ظنناه مستحيلا يا أنور ... لقد ماتت أمى وأمك واحتواها ذلك القبر الذى حوى أبوينا من قبل وعشنا بعدهما ... لم نعد نملك منهما يا أنور إلا دموعا حرى فى العين وحسرات لاذعات فى القلب ... لقد غابتا إلى الأبد ! » (على)

---

لست أدرى ما الذى يحملنى على ذكر الماضى ونبش عظامه النخرة ؟ وما الذى يغرينى بأن أتلمس مكان أحلامى من الواقع ... وأنا أعلم أن الماضى قد ذهب بمسراته وأحزانه ولم يبق فى يدى منه إلا هذه الذكريات التى طالما حاولت أن ألقى بها فى الزاوية المظلمة من نفسى لتنام فيها إلى الأبد ، فكانت تستفيق كلما أردت نسيانها فتسود صفحة الحياة فى ناظرى حتى لا أرى فيها جميلا ولا بهيجا ... وأنا أعلم أن أحلامى التى بنيتها بقطع قلبى ، وأنقاض أيامى ، ورويت رياضها بدمع عينى ، قد جف زهرها ، وصوّح نبتها ، وانهارت أمام عينى دفعة واحدة ، كما ينهار بيت من ورق اللعب ضربته كف إنسان ... فأيست منها وذهبت أعيش بقلب محطوم وكبد مكلومة ، فأضحك وأمزح حتى ليظننى الناس أسعد الناس وأنا أشقاهم وأخيبهم أملا ، وأشدهم ألما ...

فلماذا أعود الليلة إلى الماضى التى ماتت أيامه ، وماتت أحلامه ومات ناسه ؟

* * *

كنت أطل من شرفتى فى الفندق على شارع الرشيد فى بغداد الذى يمثل الحياة ويفسرها ويصور حقيقتها أكثر من تصوير الأدباء وتفسير الفلاسفة ، بل إن ساعة واحدة تشرف فيها على شارع الرشيد أجدى عليك فى فهم الحياة من دراسة عشر سنين فى هذه الكتب ...

وماذا فى الكتب إلا الحيرة والضلال ؟ ومنذا الذى تبلغ به الحماقة وتفيض على نفسه حتى يدعى أنه فهم الحياة من الكتب ؟ أنا أحد صرعى هذه الكتب وضحاياها فما لونى عن خيبتى وخسارى؟

قالت الكتب : إن المستقيم أقصر الخطوط فاسلكه تصل ، واستقم تبلغ غايتك ، فسرت قدماً فاصطدمت بأول جدار لفيته فشج رأسى وقعدت مكانى ، واستدار عيرى والتوى كما تستدير طرق الحياة وتلتوى فوصل

قالت الكتب : كن فاضلا واحرص على مكارم الأخلاق فهى السبيل ، فوجدت أهل الرذيلة هم الذين يصلون ، ورأيت أسفل الناس أخلاقاً صار أستاذاً للأخلاق فى أكبر مدرسة ، فعجبت من سخر الحياة !

وقالت الكتب : الحق ، وقالت الحياة : القوة ... وقالت الكتب : الفضائل . وقالت الحياة : الشهوات . وقالت الكتب ... ولكن لم يكن إلا ما قالت الحياة !

ونظرت إلى شارع الرشيد ، فاذا السيارات من كل جنس ولون ، والعربات من كل شكل ونوع ، والدراجات والعجلات ، كلها يعدو يريد أن يصل أولا ، وكلها يزاحم ، وكلها يزأر ويصيح ويهدد ، ولكنها إذا بلغت الغاية رأت أنها لم تصل إلى شىء فعادت أدراجها تزاحم وتعدو وتصيح ...

فقلت : كذلك الحياة ... سباق وتزاحم ، ولكن ما هى الغاية ؟ لا شىء ... !

* * *

ودخلت الغرفة وأغلقت علىّ بابى ، وأردت أن أفىء إلى عزلة أسكن فيها نفسى ، وأجد فيها راحتى ، ولكن الباب قرع ، وجاء السيد حيدر الجوادى ، الرجل الذى ملك على الدكتور زكى مبارك أمره ، وأطربه وأعجبه حتى غدا لا يصبر عن سماعه حيثما

رآه ، وحتى اضطره إلى الغناء في المكتبة العامة ، وقال له : غنّ هاهنا فوالله ليتحدثن بها الناس وليقولن إن زكي مبارك ابتدع الغناء في المكتبات ... جاءني فنانان ( أبوذية ) من ( أبوذيات العراق ) التي ما أظن أن إنسيا أو جنيا عرف نغمة أشجى منها وأسرع إلى القلب وصولا ، وأشد للألم تصويراً . هي قطرات من الدمع صورت نغما . هي خفقات القلب صيغت نشيدا . هي... هي خلاصة الفن العبقري الذي يصور الألم العبقري ... فهز نفسي هزا عنيفاً ، فتح صفحاتها جميعا ووصل ماضيها بحاضرها ، وأسلمها إلى ذهلة عميقة — لذة ممتعة — ولكنها ألمية موجعة ، ذكرت ( العتابا ) تلك الأغنية التي ترن بها أبداً أودية لبنان ، وتتحدر أصداؤها على سفوحه وحدوره ، ولا يدري أحد من هو الذي وضعها ونظم مطلعها وألف لحنها ، (العتابا) الخالدة التي يشترك في تأليفها العصر الجديد والعصر الغابر ، ويزيد فيها كل جيل أدواراً فيكون منها الصورة الصادقة لعواطف الشعب وهواجسه وأمانيه وذكرياته ، تلك التي تعيش في ترنيمة السواقي المتكسرة على الشعاف والصخور لتبلغ قرارة الوادي ، وفي نشيد الرياح في الأودية البعيدة ، وفي همس الأوراق في غابات الصنوبر الضاحكة ، وفي عطر كل زهرة ، وصمت كل صخرة ، وأشعة الشمس المطلة من وراء الذرى للسلام ، والمشرفة من آخر الأفق للوداع ، وفي نور القمر الذي يغمر لبنان بفيض من الشعر والحب والسحر ، وتعيش في كل ذروة من لبنان !

* * *

رجعتني هذه ( الأبوذية ) إلى سالفات أيامي ، فذهبت أعرض صور حياتي فيها وهي تمر بي متتالية متعاقبة كمناظر السينما ملتفة بضباب الماضي ، فأرى مآسيها المفعمة بالدموع وفواجعها الدامية ولكني لا أرى منظر بهجة ولا سرور ... فهل أرى البهجة والسرور بعد أن أشرفت على الثلاثين ؟

كنت أفكر دائماً في المستقبل ، وأنتظر المستقبل ، فما هو ذا المستقبل قد صار حاضراً ، فهل وجدت فيه إلا الخيبة والألم ؟

لقد جربت [illegible] ناعات والفنون ، وطوفت [illegible] ان ، فما أفدت من ذلك كله إلا أني تركت في كل بلد قبراً لأمل من آمالي . لقد أضعت الحب والمال ، وأضعت المجد الأدبي ، حتى هذه الألحان التي تدور في نفسي ضاعت مني ... فلم أستطع أن أسمعها الناس أغاني وأصواتاً ، ما سمع الناس إلا أقصر أغاني وأقبحها ، وتلك هي مقالاتي التي نشرتها ، فمتى يسمعون أجمل ألحاني وأطولها ؟

في المستقبل !

يا ويح نفسي ! هل بقي لي مستقبل إلا الموت الذي غدوت أحبه وأناديه لو كان يسمع النداء ؟

* * *

لقد وجدت المستقبل عدماً سهل عليّ من لوم إذا عدت إلى ماضيّ أعيش فيه ؟

في هذا الماضي دفنت أمي ، وفيه دفنت أبي ، وفيه دفنت أحلامي ... لقد أحببت كثيراً وتألمت أكثر مما أحببت ، ولكن الحب الحقيقي الواحد الذي انطوى عليه قلبي ، والألم الفرد الصادق الذي عرفه ، هو حبي أمي ، وألمي لموتها ، وكل ما عداهما حب كاذب ، وألم عارض

إني لأنسى البلاد كلها حتى منازل حبي ، وربوع هواي ، ولكني لا أنسى أبداً ذلك الزقاق الضيق الذي يمتد من العقيبة في دمشق إلى رحبة الدحداح ، لأن سعادتي ولدت في أول هذا الزقاق ، وماتت في آخره حين مات أبي وأمي ...

فيارب ارحمني بالنسيان ، وأين مني النسيان ؟

إني لأنظر إليها الآن وهي مريضة على فراشها ، كأنما كان ذلك منذ ساعة ، فيبكي قلبي ولا أستطيع أن أكتب عنها حرفاً . لا أحب أن أنشر أحزاني حتى لا تلوكها ألسنة الناس ، فليبق الألم في صدري أحمله وحدي ... أنا لا أصدق أن هذه السنين السبع قد مرت على ذلك الحادث ... أأنا أعيش سبع سنين لا أرى فيها أمي ، وقد كنت آلم إن غبت عنها يوماً ؟ أأعيش وهي نازحة لا تعود بعد عام ولا عشرة ، لا تعود قبل يوم القيامة ؟

اللهم صبراً فاني والله ما أطيق الصبر !

يقولون إن المصيبة تبدأ صغيرة ثم تكبر ، ولكن مصيبتي بأمي تنمو في نفسي كل يوم !

لم أعد أجد في الحياة ما يغريني بها ، ويرغبني فيها ؟ وماذا في الحياة ؟ كل لذة فيها مشتاة بألم ، فيها الربيع الجميل ، ولكن فيه يذور الصيف المحرق ، والشتاء القاسي . وفيها الحب ، ولكن لذة الوصال مشوبة بمخافة الهجر . وفيها الصحة والشباب ، ولكنهما يحملان الهرم والمرض . فيها الغنى ، ولكني ما عرفته وما أحسبني سأعرفه أبداً .

لقد كرهت الحياة ، وزادها كراهة إليّ هؤلاء الناس ، فلم يفهمني أحد ولم أفهم أحداً . إن حزنت فأعرضت عنهم مشتغلاً بأحزاني قالوا ، متكبر ، وإن غضبت للحق فنازعت فيه قالوا ، شرس ، وإن وصفت الحب الذي أشعر به كما يشعرون قالوا ، فاسق ، وإن قلت كلمة الدين قالوا ، جامد ، وإن نطقت بمنطق العقل قالوا ، زنديق ، فما العمل ؟ إليك يا رب المشتكى فما لي في الدنيا بعد أمي صديق !

تلك هي التي كانت تقبلني على علاتي ، والناس لا يقبلون إلا محاسني . تلك التي كانت تحبني أنا ، والناس يحبون أنفسهم فيّ . تلك هي الحبيبة الوفية التي لا تهجر ولا تخون ، تلك هي دنياي ، فوا أسفي ، إن دنياي قد احتواها التراب !

لم يبق من آثار هذا العالم الحافل بالاخلاص والحب إلا قبر منعزل وساقية صغيرة ، تميل عليها شجرة صفصاف ، وهذا كل شيء . . .

إني لأقدس ذكرى هذه الشجرة ، وأخشع لها . إن حركات غصونها لتحرك في نفسي عالماً كاملا ، ولكنها لا تبالي ذكرياتي ولا تحفلها . إنها قائمة تحنو على اللص الفاتك ، كما تحنو على المحب الثاكل ، وتؤوي المجرم الهارب ، كما تؤوي الشاعر المتنزل ، فما أضيع ذكريات المحبين عند الطبيعة ، وما أضيعها عند الناس !

لقد انصرف عني السيد حيدر الجوادي ، ونام عني أصحابي ، وتركوني أتجرع غصص آلامي وحيداً ، فمن هو الذي يعطف علي ، ويشاركني حمل الآلام ؟ لقد أيست من الطبيعة ومن الأصحاب ، فهل تسعدني أنت يا أيها المحسن المجهول الذي لا أعرفه أبداً ؟ أنت يا من يجوز مع الشمس بمقبرة الدحداح يزور حبيباً له طواه الرمس ، هل تمن على غريب متألم فتحيي عنه هذه البقعة وتعطف على ذكريات له فيها ، هي أعز عليه من الحياة ، لأنها كانت جمال الحياة ؟ هل تترفق في سيرك وتتئد وتعلم أن في هذه الرمال التي تطؤها أطلال قلب كان من قبل عامراً سليما . . . ترفق فانك لو ملكت حاسة تدرك بها الذكريات لرأيت في هذه البقعة ما بين رمالها وترابها ، بقايا قلب محطوم ، بقايا دامية حزينة شاكية ، ولسمعت نشيجها

ما تصدع هذا القلب من هجر الحبيب ، ولا هدته أحداث الغرام ، ولكن عصفت به عاصفة من موت الأم فهدت أركانه ، فاسكب على بقاياه قطرة من الدمع تحيها بها ساعة ، أو قل كلمة تسعد بها روحه الحزينة ، ثم توجه إلى القبر المحبوب ، إلى قبر أمي وأبي أيها الصديق المجهول ، فاسأل الله لما كتبه الرحمة والغفران ، فما بقي لي بعدهم أحباء ، ولا بعده دنيا . . .

لقد تركت تحت أقدامك قلبي وحبي يا أيها المحسن المجهول ، فارفق بهما . أسعد هذا اليتيم الضعيف ، وإن كان الناس يدعونه شيخاً ، وإن كان في الثلاثين من عمره !

رب ، رحمة لهذا اليتيم الضعيف ، ابن الثلاثين !

« رب اغفر لي ولوالدي ؛ رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

( بغداد — المدرسة الغربية ) علي الطنطاوي


# الفصول والغايات

معجزة الشاعر الأديب

## ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

وهو مضبوط بالشكل الكامل ويقع في قرابة ٥٠٠ صفحة

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع في جميع المكاتب الشهيرة